الفرع الثالث

أثـر الوقف علـى المساجـد

"عني المسلمون بأمر المساجد منذ فجر الإسلام، وأولوها عنايتهم ورعايتهم لأن لها أثراً جليلاً في توجيه المجتمع في مجالات السياسة والثقافة والتعليم والتربية والاقتصاد وغيرها.

لـــذا نال الوقف على إنشاء المساجد وصيانتها والإنفاق على القائمين عليها من الأئمة والـــوعاظ والعلماء، اهتمام المسلمين وعنايتهم، فلم تكن المساجد في كل البلاد الإسلامية إلا مـــساجد وقفـــية، ثم إن خـــدماتها وصيانتها كانت مما حبس عليها من الأموال الوفيرة لتأدية وظائفهـــا المـــتعددة، فكانت المساجد إلى جانب هدفها الأساسي وهو إقامة العبادة لله تعالى، كانـــت مراكـــز لاجتماع الأمة وأمكنة التقاضي وفض الخصومات، واستخدمت قبل إنشاء الدواوين الحكومية، والوزارات المتخصصة أماكن لتصريف شؤون الدولة وأكثر ما استخدمت المساجد لأجله إلى جانب العبادة مراكز للتعليم، فكان الرسول ﷺ أول من استخدم مسجده، مكانا للدعوة والتعليم والإرشاد، وترسم صحابته من بعده خطاه، فاستمرت حلقات العلم في مسجده" [1].

"وكـــان النبي ﷺ في مكة يعلم أصحابه أمور الدين، في دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه، وعـــندما هاجر إلى المدينة كان يعلمهم بصفة عامة في كل حالة من حياته و لم يكن في مسجده ﷺ درس منتظم سوى خطبة الجمعة، إلا أن يدعوهم أحياناً لدرس أو موعظة شاملة فلا غرابة إن قيل بأن الصحابة إنما تلقوا أكثر العلم في المسجد.

وكـــان ابن عباس رضى الله عنهما[2]، يلقى دروسه في المسجد الحرام عند زمزم ولكن

---

(١) أثر الوقف في الجانب التوجيهي للمجتمعات –د. صالح بن غانم السدلان–ص٢٧.

(٢) هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب الهاشمي القرشي، ابن عم الرسول ﷺ ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات وهو حبر هذه الأمة وفقيهها ومناقبه كثيره، توفي بالطائف سنة ٦٨هـــ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٣/٣٣١، والإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر ٤/٩٠ – ط١ – ١٤١٢هـــ – ١٩٩٢م – دار الجيل – بيروت.

مكانة المسجد العلمية، كانت تتعمق يوماً عن يوم.

والمسجد في أصله مرفق وقفي بني لعبادة الله تعالى، أما اتخاذه مكاناً للتعليم فقد تم بكيفية تلقائية ذاتية من الطلاب والعلماء، ومع التطور وقف الناس أوقافاً على حلقات قراءة القرآن الكريم" (١).

"وبمرور الزمن ازدهرت المساجد وخاصة الكبرى منها مسجد الكوفة ١٤هـ ومسجد البصرة ١٧هـ، ومسجد عمرو بالفسطاط ٢١هـ، والمسجد الأموي ١٩هـ، وجامع ابن طولون ومسجد القيروان ٥١هـ، وجامع صنعاء والجامع الأزهر، وجامع المنصورة ببغداد وغيرها، وكلها كانت مراكز علمية، عكف فيها طلاب العلم لجميع العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية.

لأجل هذا عني أهل الخير بالمساجد ووقفوا الأموال الطائلة على إنشائها وصيانتها وعلى القائمين عليها من علماء وقُراء ووعاظ وعاملين وطلاب علم" (٢).

إن المتأمل في تاريخ الوقف الإسلامي يقف على كثرة الأوقاف على المساجد وبلغ من ضخامة هذه الأوقاف أن خصص لها ديوان أطلق عليه ديوان أحباس المساجد مهمته تسجيل الأحباس في سجل خاص والإشراف عليها.

وكانت أحباس المساجد، ترصد لصيانة المساجد، ودفع مرتبات العاملين بها من أئمة ووعاظ وخدم.

" ولقد بلغ من كثرة الأوقاف في عهد المماليك أن جعل لها ثلاثة دواوين: ديوان لأوقاف المساجد، وديوان لأحباس الحرمين الشريفين وجهات البر المختلفة وديوان للأوقاف الأهلية (٣) .

---

(١) الإيمان واهتمام الوقف بالعلم والتعليم – أحمد بن محمد الغربي ص٣٠.

(٢) أثر الوقف في الجانب التوجيهي للمجتمعات –د.صالح السدلان– ص٢٧.

(٣) محاضرات في الوقف – محمد أبو زهرة –ص١٤.

"لقد كان المسجد مصدر الإشعاع الروحي والعلمي للأمة فكان بمثابة الجامعة التي خرّجت كل المفكرين والعباقرة في شتى المجالات والذين قادوا مسيرة التطور الحضاري في العالم كله"(١).

"إن المسجد كان منارة سامقة للعلم والمعرفة والثقافة ومنارة للإرشاد والتوجيه وإذا كانت الدعوة إلى الإسلام تحتاج إلى رجال ذوي علم وثقافة وفقه عميق لتعاليم الإسلام فإن المسجد كان الموئل الذي يلجأ إليه كل من يريد أن يتفقه في الدين، وكانت حلقات العلم في المساجد في كل مكان من دار الإسلام لقاءات علمية مفتوحة تيسر لكل راغب في العلم أن ينهل منها، وكان هؤلاء الذين يدرسون في حلقات المساجد ويتلقون العلم عن شيوخ هذه الحلقات هم دعاة الإسلام في داخل دياره وفي خارجها"(٢).

"إن وقف الأموال على المساجد مكّن العلماء أن ينهضوا برسالتهم في استقلالية وعزة، الأمر الذي جعلهم سلاطين الأمة تتوّج من بينهم شيوخ الإسلام وسلاطين العلماء ليقودوا مسيرة حضارتها، وليذودوا عن حياض عقيدتها، وليكونوا بحق ورثة الأنبياء في الدعوة إلى الله والتمكين لدينه في دنيا الناس" (٣).

"فالمسجد كان النواة الأولى للدعوة والحضارة الإسلامية، وكانت الأوقاف التي حبست عليه من أهم العوامل التي هيأت لهذه النواة، أن تؤدى رسالتها كاملة في تبصير الأمة بحقائق دينها وفقه شريعتها، وفي إعداد الدعاة الذين جاهدوا في سبيل الله فكانوا مشاعل تنير الدرب على طريق الحق"(٤).

إن للوقف على المساجد أثرًا عظيمًا وواضحًا في تأسيس الدعاة وإعدادهم، وقد ظهر

---

(١) العرب والحضارة الأوروبية- عباس محمود العقاد -ص٢٥-ط١-دار الفكر العربي- القاهرة.

(٢) مجالات الوقف المؤثرة في الدعوة إلى الله- د.محمد الدسوقي ٨٩-٩١- مؤتمر الأوقاف الأول- ١٤٢٢هـ-مكة المكرمة.

(٣) دور الوقف في النمو الاجتماعي-د. محمد عمارة-ص٢٣-ندوة الوقف بالكويت.

(٤) انظر: مجالات الوقف المؤثرة في الدعوة إلى الله -د. محمد الدسوقي-ص٩٣-٩٤.

ذلـــك في الجيل العظيم من الأئمة والعلماء والدعاة، الذين أفادت منهم الدعوة الإسلامية إفادة كبيرة وعظيمة.

٢ - **الربـــط**: -

"الـــرباط: اسم المكان الذي يلزمه الجند لحراسة ثغور البلاد الإسلامية من الأعداء، فهو مصطلح يطلق على نوع من التكنات العسكرية التي يرابط فيها المجاهدون.

وهـــي تماثل ما يسمى في عصرنا الحاضر بمراكز حرس الحدود، ولم تقتصر المرابطة على العلماء، بل كان يرابط في هذه الربط الطبيب ورجل البريد، وناسخ الكتب، والكل يشارك في خدمـــة إخـــوانه المسلمين احتساباً،وبمرور الزمن ومع إقبال الناس على المرابطة، أضافت تلك الـــربط إلى وظيفـــتها الجهادية العسكرية، وظيفة التدريس والتأليف من قبل العلماء والفقهاء المرابطين فيها.

وقـــد حظـــيت هذه الربط باهتمام المسلمين فكثر الواقفون عليها، حيث إنها تجمع بين الجهـــاد في سبيل الله والتعليم والعبادة، وكلها أمور تساعد على طلب العلم، وحيث استقرت أحـــوال البلاد الإسلامية، وتغيرت وظيفة الربط الأساسية، لتكون دور علم وتعليم، مما جذب الكثير من طلاب العلم لتلقي دروس العلم فيها، إلى جانب ذلك كان العلماء يقومون بالتأليف ويحبـــسون تصانيفهم على طلابهم، ونتيجة لذلك نمت المكتبات وكثرت المخطوطات الموقوفة بـــتلك الـــربط، وقـــد قام أهل الخير بوقف عدد كبير من الربط بمكة المكرمة والمدينة المنورة والرياض وجدة والطائف، وغيرها من مدن المملكة" [١] .

إن الـــربط أدت دوراً جهادياً وعلمياً واجتماعياً عظيماً؛ حيث أسهمت في إثراء الحياة العلمية وتأهيل طلاب العلم وإعدادهم، من خلال تلك العلوم الإسلامية التي كانوا يدرسونها، مما أتاح الفرصة أمامهم ليقوموا بالدعوة إلى الله تعالى، وانساحوا في البلاد ينشرون الإسلام.

٣ - **الخوانق والزوايا والخلاوي**: -

الخانقـــاه كلمـــة فارسية، بمعنى البيت وتُبنى على هيئة مسجد بدون مئذنة بها عدد من الغـــرف مخصصة لاستقبال الفقراء، وعابري السبيل وقد رتب فيها العلماء والمشايخ دروساً في

---

(١) أثر الوقف في الجانب التوجيهي للمجتمعات -د. صالح بن غانم السدلان ٢٨-٢٩.

مختلف العلوم، **والزوايا** كالخانقاة ولكنها أصغر حجماً، وتقام على الطرق والأماكن الخالية، ويخصص لها شيخ لتدريس القرآن والعلوم الشرعية.

والخلاوي هي مدرسة القرآن الكريم، وقد أطلق عليها هذا الاسم؛ لأنه كانت تقام في خلوة المسجد للاستخدام في الشتاء.

وقد وقف أهل الخير عليها وعلى مشايخها وطلابها أوقافًا مكنتها من أداء مهمتها" [1].

لقد كانت الربط والزوايا بمثابة وسائل لتنمية مهارات العاملين في الدعوة، وكانت مراكز مهمة لإيقاف الكتب، وإنشاء خزائن الكتب فيها، وكان يرتادها الرحالة وطلبة العلم والتجار والمسافرون الذين كانوا يقومون بواجبهم في الدعوة إلى الله تعالى.

٤ - الكتاتيب: -

"كانت الكتاتيب في السابق تلحق بالمساجد، وكانت الكتاتيب آنذاك تشبه المدارس الابتدائية، وقد بلغت الكتاتيب التي تم تمويلها بأموال الوقف عدداً كبيراً فمثلاً: عدّ ابن حوقل منها ثلاثمائة كُتّاب في مدينة واحدة من مدن صقلية، وذكر أن الكُتّاب الواحد كان يتسع للمئات أو الآلاف من الطلبة، وذكر أبو القاسم البلخي مدرسة في ما وراء النهر، كانت تتسع لثلاثة آلاف طالب ينفق عليهم وعلى الدراسة من أموال موقوفة لذلك الغرض"[2].

"وإن فقهاء المسلمين قرروا أنه إذا أوقف وقف على المتعلمين وكان بعضهم موظفاً أجيراً، ولكنه يختلف إلى الفقهاء والمدارس، فإنه لا يحرم من مخصصات الوقف بسبب وظيفته، كما أنه لا يحرم من وظيفته.

وإذا خرج من المدرسة أو المسجد الذي يتعلم فيه لغرض طلب القوت مدة لا بد له منها فإنه لا يحرم من مخصصات الأوقاف، وكذلك إذا اشترطت الوقفية السكن مع النفقة أو الدراسة؛ أي إذا كان الطالب يدرس ويتفقه نهاراً، ولكن يبيت خارج المدرسة ليلاً للحراسة أو

---

(١) أثر الوقف في الجانب التوجيهي للمجتمعات، د. صالح السدلان، ص ٢٩-٣٠.

(٢) الوقف وأثره في حياة الأمة- د. محمد أحمد الصالح ص ٢٦-٢٧.

لأي عمل مشروع آخر فإنه لا يحرم من أموال الوقف وإن قصّر في النفقة والتعليم نهاراً أو عمل عملاً آخر ولكنه كان بحال يعد فيه من متفقهي وطلبة المدرسة، فإنه لا يحرم من موارد الوقف أيضاً " [1] .

"إن الكتاتيب كانت مرافق تعليمية خاصة بالصبيان، دون الكبار وهي تعنى بتعليم المبتدئين من الصبيان القراءة والكتابة، ومبادئ علوم الدين، ولما كان تعليم الأولاد يعد أمراً شرعياً وواجباً دينياً تقع مسئولية القيام به على عاتق الآباء، تولى أولياء الأمور والمحسنون من المسلمين أمر إنشاء الكتاتيب والإنفاق عليها، وشارك في هذا الفضل المعلمون الذين كانوا يقومون بمهنة التدريس احتساباً، وخاصة في العهد الأول للإسلام ثم انتشرت الكتاتيب العامة الموقوفة بعد ذلك عبر العصور" [2].

ولا شك أن الرُبط والزوايا والكتاتيب، كان لها إسهام واضح وجلي في تأهيل الدعاة وطلاب العلم، وذلك من خلال تلك الاستفادة التي كانوا يستفيدونها من المكتبات الوقفية في تلك الأماكن المذكورة، هذا فضلاً عما كان يقدم لمرتاديها من طلاب العلم من خدمات متنوعة تمثلت في رعايتهم من ناحية المأكل والمشرب والملبس والسكن، مما هيأ لهم أجواءً علمية مناسبة ساهمت في إعدادهم وتأهيلهم.

---

(١) الإسعاف في أحكام الأوقاف — برهان الدين إبراهيم الطرابلسي الحنفي ص ١٢٢.

(٢) المدارس الوقفية في المدينة المنورة — دراسة تاريخية وصفية —د. طارق بن عبد الله عبد القادر حجار–ص١٠٢ مؤتمر الأوقاف الأول–١٤٢٢هـ– جامعة أم القرى– مكة المكرمة.